المسرح بالوراثة الشرعية:

اعادة كتابة التاريخ المسرحي المغربي اصبحت ضرورة ملحة

د. محمد الوادي *

1. فاتحة الأسئلة المفتوحة:

نحاول، من غير أي توجس معرفي، أن نقبض على شيء اسمه المسرح، أو شيء اسمه ظل المسرح.. أو شيء ثالث يجمع بين المسرح وظله اسمه أيضا بعض تجليات المسرح في الجغرافيا المغربية وما تطرحه هذه الجغرافيا المحملة بثقل التاريخ من اكراهات.

ـ كيف يمكن أن نقبض ـ تاريخيا ومعرفيا وجماليا ـ على بعض هذه التجليات؟

ـ كيف يتسنى لنا، نحن القابعين في الخرائط البعيدة عن حواضر المسرح وقلاعه القديمة ومراكزه التاريخية، أن نصوغ مسرحا يشبهنا، من جهة، ويتقاطع مع المسارح الأخرى، من جهة ثانية؟

ـ كيف يتأتى لنا، نحن الورثة غير المعترف بهم لفنون الجسد، أن نمتلك فن الجسد بامتياز وننتزع اعتراف الآخر بهذا الامتلاك؟

ـ كيف نتمكن من اعادة اكتشاف ذواتنا، وفنوننا، وطاقاتنا، من غير اقحام الآخر وسلطاته القاهرة؟

ـ وأخيرا كيف نجعل الآخر يقرأنا برؤية فنية بعيدة عن النزعات الاستعمارية؟

2. البداية الخاطئة: أرشيفنا ومناهجهم:

دعوني أفتح واياكم ما سمي تجاوزا «تاريخ المسرح المغربي». ونحن نحاول الاقتراب من هذا الذي ينغرس فينا ويسكننا منذ الأزل ولا نجرؤ على منحه جنسيتنا، لا بد وان نضع في الحسبان، الشرط التاريخي، والشرط الفني الجمالي، والشرط الوظيفي كعناوين عريضة لاشتغالنا وانشغالنا. لنبدأ من البداية التي كانت خاطئة والتي أسست لممارسة صراع الأقنعة. أتحدث هنا عن المسرح بما هو أبعاد، ومساحات، وايديولوجيا الشعوب والنخب، وتحديدا عينات الأنتلجانسيا. هنا بالذات يمكن أن نستخلص الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى هي أن أرشيف المسرح المغربي فيه الكثير من البياضات، والمساحات الفارغة، والمقحمات،. ..

الحقيقة الثانية هي أن هذا الأرشيف لم يكتبه المغاربة ، بل جمعه العقل الغربي الاثنوغرافي المسيس بخلفية استعمارية.

الحقيقة الثالثة هي أن السلطة السياسية والثقافية في المغرب تدخلت في فعل التدوين للمسرح وبصمته بميسمها.

الحقيقة الرابعة هي أننا لا نزال أسرى هذا الأرشيف الناقص والمزور.

والحقيقة الخامسة هي أنه لا بد من اعادة النظر في هذا الأرشيف، وبالتالي اعادة قراءته بناء على معطيات جديدة ومناهج أصيلة.

يربط الكثير من الدارسين ميلاد المسرح في المغرب بالزيارة التي قامت بها بعض الفرق المسرحية العربية الى المغرب في بداية العشرينيات من القرن الماضي. وهذا هو أول اشكال يواجه البداية الخاطئة أي تاريخ ميلاد المسرح في المغرب. والذين يرجعون نشأة المسرح بالمغرب الى سبب الزيارة انما يرهنون ، ليس المسرح وحسب، ولكن أيضا حركية التطور المغربية برمتها، فيجعلون منها مجرد صدى لصوت حقيقي مشرقي، علما «أن وفود المسرح الحديث من المشرق لم يكن الا عاملا مساعدا ومحفزا ـ من عوامل ومحفزات أخرى ـ لطاقة ما كان يتمخض في الرحم المغربي»(1)

يمكن أن نتحدث، وباسهاب، عن الرحم المغربي من منظور مسرحي في تعالقه مع التخصيب البيولوجي. الذين يربطون بين زيارة فرق مسرحية مشرقية ونشأة المسرح بالمغرب كما لو كانوا يعقمون هذا الرحم، وينفون تجليات الخصوبة في مظاهر البيولوجيا المغربية، وتحديدا بيولوجيا الابداع. وهؤلاء ينسون أن المغرب كان ولا يزال ملتقى الثقافات والحضارات والفنون، ولم يكن في حاجة لزيارة هذه الفرق ليتعرف على أبجديات المسرح. لو لم يكن المغرب مهيأ لاستقبال هذا الفن، في طبعته الحالية/ الايطالية، لما تركت هذه الزيارات لهذه الفرق أي أثر يذكر. لهذا نرى أن أي فكر اختزالي متسرع لا يخدم المسرح المغربي، وبالتالي لا يخدم الحقيقة.

3. المسرح أبو البشر:

المسرح أبو الفنون، هكذا سموه لأنه يختصر كل الفنون، بل وكل العلوم، بل وكل الأنشطة الانسانية. وبما أنه خاصية يشترك فيها كل الناس من آدم الأب الى آدم الحفيد، فانه أبو السلالة البشرية. ومنذ آدم الأب والانسان يكابد من أجل ترسيخ ثقافة التواصل مع الآخر اما بالمبادرة (ارسال اشارات ورسائل) أو باستقبال اشارات ورسائل وحل شفراتها، وأو بالتفاعل المباشر الذي ينتج عن الاحتكاك المباشر. لذلك وجدنا هذا الانسان مقلدا ومحاكيا. أليس المسرح أبو البشرية؟

لنعد الى المسرح في المغرب، وهو في تقديرنا مسرحان:

النوع الأول هو الذي صادف هوى المغاربة، ووجد عندهم الاستعداد الكامل والتهيؤ اللازم، فحولوه الى أداة من بين أدوات أخرى لمحاربة الاستعمار.

النوع الثاني هو الذي أدخله المستعمر ليلعب الدور التكميلي كقناة اعلامية تبشيرية بحضارة المستعمر الجديدة.

4. المسرح بالوراثة الشرعية:

موجة المسرح بالتبني أو بالاستنبات، أو بأي شكل آخر هي موجة على مشارف الانكسار لنعود الى المسرح بالوراثة الشرعية، فقط علينا النبش في الموروثات، وارثنا الثقافي والفني غني، ومنه ما تم اكتشافه والتنبيه له، ومنه ما لا يزال مغمورا ومسكوتا عنه أو غير مفكر فيه. قبل فرض الحماية على المغرب تسلل العديد من الاثنوغرافيين الأجانب الى المغرب تحت أسماء، ومهن، وصفات، فوقفوا على ارث شعبي لا يقدر بثمن. الا أن الاختلاف لا يزال قائما حول مرجعيات هذا الارث (دائما نختلف حول الأصول ونتفق حول القشور) وتبقى الفرجات الشعبية هي الأصول الحقيقية للمسرح المغربي، وهي التي يجب تطويرها وتطويعها وملاءمتها مع قواعد المسرح ونظرياته، وبالتالي يجب تجاوز المنهج التنقيبي الذي فرضه اثنوغرافيو ما قبل الاستعمار حيث كان الهدف ايديولوجيا. وفي نفس الوقت يجب تجاوز الآراء التغريبية التي تحاول سجن المغرب وسجن تراثه في المناهج والنظريات الغربية.

اننا لا نختلف في أن المسرح بشكله الايطالي ظل بعيدا عن نسيج الثقافة المغربية المبنية ـ مثلها مثل الثقافة العربية ـ على المرويات السمعية. وهذا لا يمنع من انفتاحها على المكونات البصرية. ولا ينفي ـ كذلك ـ انطواء الأشكال الفرجوية على بوادر ومؤشرات مسرحية، مثل الحكي ـ الغناء ـ الرقص ـ الموسيقى ـ الحركة الارتجالية. ومع ذلك يصر بعض الباحثين والمسرحيين المغاربة على ابعاد هذه الأشكال عن الطابع المسرحي، مع العلم بأنها قريبة من جوهره، بل هي مسرح بطابع مغربي. بخصوصية مغربية. وبمنظور مغربي.

اننا ندعو الى اعادة اكتشاف العين المغربية بناء على الصورة السمعية، وبناء على المرويات المشهدية. هذا الاكتشاف حتما سيعطي للمسرح المغربي عمقه التاريخي. «كما نستطيع أن نؤكد أن العرب والمغاربة أبدعوا خلال التاريخ ألوانا مختلفة ومتطورة من المسرح، وهو بذلك متأصل عندهم»(1)

5. المسرح المغربي: كعكة في وليمة أكالين:

يعري المسير الخاص بتطور المسرح المغربي عن بعض الالتباسات والاستفهامات، وربما كان مرد ذلك الى المرجعية التي يشوبها الكثير من الغموض، بالرغم من وجود مؤشر دال على وجود مرجعيتين: واحدة عربية اسلامية، والثانية غربية. الا أن التقاطع بين اسلامي ـ غربي في تشكيل رؤية واحدة قد حال دون تحديد المسير المرجو. وفي اطار التباس ثالث جرت معركة المرجعيات، وبدا المسرح المغربي كما لو كان كعكة في صحن أكالين كل واحد يريد أن يقتطع ما شاء، من أي مكان شاء، وفي أي وقت وزمن شاء، وبالطريقة التي يشاء. وبالفعل تمت عملية التقطيع القيصرية التي أضرت كثيرا بالكعكة نظرا لفوضوية التقطيع، ولعدم شرعيته، ولان المقطعين ـ في غالبيتهم ـ ليست لهم الأهلية والكفاءة والأمانة العلمية لممارسة هذه المسؤولية.

وهكذا نجد أن حسن المنيعي يتبنى المرجعية الغربية ويشدد على أننا «نستطيع التأكيد بأن فن المسرح المغربي والعربي عموما كان فنا مستوردا»(2) في حين ترى الباحثة نوال بنبراهيم أن المسرح المغربي في جوهره وأصله أشكال مسرحية، وأن هذه الأشكال الفرجوية تنقسم الى نوعين: نوع منها «لا تناظر مثيلاتها الاغريقية»(3) أما النوع الثاني فيسجل «بعض التشابه مع الأشكال المسرحية البدائية الاغريقية، فيرتبط بما هو طقوسي ويتجلى في فرجات عيساوة وكناوة وجيلالة».(4) أما محمد أديب السلاوي فقد كان أكثر وضوحا حينما تحدث عن الأشكال المسرحية فوصفها بأنها كانت الفرجات «التي يتنفس ويبدع من خلالها الفنانون القص، والحكاية، والمثل، والأسطورة، والأغنية، والرقص، هي مسرحه الذي سجل عاداته، وتقاليده، واحتفالاته، وحكاياته وأساطيره».(5)

هذه بعض الآراء سقناها كشواهد على تبيان المواقف والمواقف المضادة. هذه المواقف تؤثر على النظرة الى المسرح المغربي في بعده التاريخي. وجل هذه الآراء متأثر بالمناهج الغربية وزوايا النظر الغربية. ذلك أن الهيمنة الغربية لم تقتصر على المجالات السياسية والاستعمار الجغرافي، بل امتدت الى نهب تاريخ الشعوب، واعادة كتابته وفق التصور الكولونيالي.

من هذا المنطلق نرى أن اعادة كتابة التاريخ المسرحي المغربي، بل واعادة كتابة التاريخ الفني المغربي أصبحت ضرورة ملحة.

* كاتب وباحث مسرحي /المغرب

مشهد من مسرحية للفنانة المغربية ثريا جبران

الهوامش:

(1) الدكتور عباس الجراري: «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه» ج1 ـ ط1 ـ ص 269.

(2) الدكتور حسن المنيعي: «أبحاث في المسرح المغربي» ط2 / 2001 ـ ص20.

(3) الدكتورة نوال بنبراهيم: المناهل ع56 ـ س22 / 1997

(4) المرجع نفسه.

(5) محمد أديب السلاوي: «المسرح المغربي من البداية الى الامتداد» ط1 / 1996 ص7.

في اجتماعهم الأسبوعي في «بيت الشعر»

لجنة الطوارئ الثقافية والحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل تؤكدان رفض التطبيع

رام الله – اللجنة الإعلامية: في لقائهم الأسبوعي في قاعة الشاعر حسين البرغوثي في «بيت الشعر» أكد المثقفون الفلسطينيون في اجتماعه السابع الذي يتناول «التطبيع» إدانتهم الأكيدة ورفضهم العدوان الإجرامي على لبنان وغزة والعراق، مؤكدين أنه آن الأوان ليخرج المثقفون عن صمتهم المريب ويأخذوا دورهم في التعبئة الثقافية وفضح الدور الأمريكي الإجرامي الداعم للاحتلال الإسرائيلي..

وقدمت المداخلة في اللقاء د. إصلاح جاد و د . ليزا تراكي من جامعة بيرزيت عن «الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل»، حيث أشار كل من جاد وتراكي إلى دور الحملة في إيصال الصوت الفلسطيني إلى غير جامعة وملتقى ولقاء في إطار فضح السياسة الاحتلالية وأشارا إلى دور العديد من المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية والأكاديمية في التطبيع مع النقيض، وأشارت إصلاح في قولها إلى ضرورة وقف التطبيع تحديداً في هذه اللحظات التي تعصف بالبلاد والعباد وأضافت:

بما أن الاضطهاد الكولونيالي الإسرائيلي للشعب العربي ـ الفلسطيني يستند بالأساس على الفكر الصهيوني العنصري ، ويتضمن الأشكال الرئيسية الثلاثة التالية:

1. رفض إسرائيل الاعتراف بالمسؤولية عن النكبة وما شملته من تطهير عرقي خلق قضية اللاجئين الفلسطينيين، وإنكارها للحقوق المكفولة للاجئين في القانون الدولي، وأهمها حق العودة للديار .

2. الاحتلال العسكري للضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية) وقطاع غزة وما يشمله من استعمار استيطاني يخالف القانون الدولي.

3. التمييز العنصري الشامل ضد فلسطينيي 48 (حاملي الجنسية الإسرائيلية) والتفرقة العنصرية الناجمة عنه ، بما يشبه نظام جنوب افريقيا.

وبما أن قوات الاحتلال الإسرائيلي تقوم بالتدمير المنهج للمؤسسات الأكاديمية والثقافية الفلسطينية، عن طريق الحواجز العسكرية والحصار الخانق والجدار الكولونيالي العنصري والاعتقالات والاعتداء العنيف على المدارس والجامعات وهيئاتها التدريسية والإدارية وطلبتها.

وبما أن المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية (وغالبيتها حكومية) تدعم بشكل مباشر أو ضمني إدامة أشكال الاضطهاد هذه وتشارك في كثير من الأحيان في المشروع الاستعماري، وبما أن الأكاديميين /ات والمثقفين / ات بغالبيتهم متواطئون .. وبالتالي مشاركون في تحمل المسؤولية .. في انتهاكات حقوق الإنسان و/ أو الجرائم التي تقوم بها إسرائيل بحق الفلسطينيين ، بشكل مباشر (كالمشاركة في الأبحاث والدراسات واللجان التي تديم الاحتلال والتمييز العنصري، أو الخدمة في جيش الاحتلال لعدة أشهر في كل عام كجنود أو ضباط احتياط)، أو ضمني (عبر تأييد أو تبرير هذه الانتهاكات والجرائم، أو التزام الصمت حيالها)، وكون العالم يشهد تنامياً للحركة العالمية الداعية لمقاطعة إسرائيل بأشكال متفاوتة، ونظراً لأن النشطاء الدوليين الداعين لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً يتطلعون لصياغة مواقفهم بناءً على مرجعية فلسطينية تطرح مبادئ واضحة ، فإننا كمثقفين /ات فلسطينيين /ات نرى أنه من واجبنا كأفراد ومؤسسات مقاطعة الصهيونية وتجلياتها.

وأضافت د. ليزا تراكي:

تؤمن الحملة بأن العقوبات والمقاطعات ضد إسرائيل في شتى المجالات تعتبر من أشكال المقاومة المدنية للاضطهاد الاستعماري الإسرائيلي، المبني على الفكر الصهيوني العنصري، كما نعتقد بأنها إذا طبقت عالمياً تصبح مؤثرة وفاعلة في النضال من أجل إنهاء الاضطهاد، كما أثبتت تجربة جنوب افريقيا . البعض يبرر مشاركته في المشاريع المشتركة مع الإسرائيليين بذريعة الاستفادة من التقدم الإسرائيلي البارز في المجالات المختلفة (بالذات في مجال الصحة والزراعة والمياه والعلوم والتكنولوجيا)، وهذا برأيهم يفيد بناء وتطوير مؤسساتنا للتحضير لدولتنا المستقبلية، يتغاضى هذا الطرح عن قضيتين محوريتين:

1. أن هذه المشاريع المشتركة تستثمر من قبل إسرائيل للتغطية على جرائمها وتحديداً لمنع وصولنا لحقوقنا الوطنية، وبالتالي تبقى أي استفادة علمية ثانوية في المحصلة النهائية بالمقارنة مع الضرر الذي تحدثه هذه المشاريع.

2. أن هناك دولاً متطورة أخرى في العالم (بالذات تلك التي توفر التمويل للمشاريع أصلاً) نستطيع أن نحصل منها على تدريب أو تطوير مهارات دون أن نساهم في تشريع أو إدامة الاضطهاد الإسرائيلي .

بالإضافة إلى ذلك، ومن منظار برغماتي بحت ، فقد أثبتت أكثر من عشر سنوات من المشاريع المشتركة في شتى المجالات فشلاً ذريعاً في تحقيق تقدم يذكر حتى في تلك المجالات « اللا ـ سياسية»، لأن العائق الجوهري أمام التقدم فيها جميعاً كان ولا يزال الاحتلال، وفي المقابل، استغلت إسرائيل هذه المشاريع لتشرع استعمارها وعنصريتها أمام العالم أو لتحرف الأنظار عن جرائمها ضد الشعب الفلسطيني بعناصره الثلاثة، وبالتالي كانت مكاسبها أكبر بما لا يقارن مع الفتات الذي حققه الفلسطينيون المشاركون في تلك المشاريع. كما يجب هنا توضيح موقفنا الرافض للمشاريع المشتركة التي ترعاها بعض منظمات الأمم المتحدة والتي تدعي الحياد والبعد عن السياسة، إذ يلاحظ في الآونة الأخيرة زيادة المشاريع المشتركة في مجالي البحث العلمي والرعاية الصحية برعاية مؤسسات دولية كاليونسكو ومنظمة الصحة العالمية، والقاسم المشترك بينها جميعاً هو التجنب التعسفي لإدانة الاحتلال وأشكال الاضطهاد الإسرائيلي الأخرى للشعب الفلسطيني، على عكس دور هذه المنظمات في مقاطعة جنوب افريقيا بالماضي.

ضمن أسبوع مناصرة المقاومة العربية:

نقابة المحامين المصريين تستضيف أدباء وفنانين لطرح أشكال جديدة للمقاومة

القاهرة ـ «القدس العربي»

من محمود قرني:

ضمن أسبوع مناصرة المقاومة العربية في فلسطين والعراق ولبنان، استضافت نقابة المحامين المصريين ندوة موسعة اقامها التجمع الوطني من اجل المقاومة العربي، الذي يتشكل من عدد من القوى السياسية والجماعات الأهلية، وكان اليوم مخصصا بكامله للأدباء والفنانين تحت عنوان «ازرع كل الأراضي مقاومة لكي يطرحوا تصوراتهم حول تطوير آليات دعم المقاومة العربية».

وقد بدأ وقائع اليوم منذ الثانية عشرة صباحا حيث شهدت جنبات النقابة عددا من الأعمال التشكيلية والكاريكاتورية التي كان معظمها لناجي العلي، وكذلك بعض اللوحات الخطية التي احتفت بعدد من قصائد المقاومة العربية لمحمود درويش ونزار قباني وأحمد فؤاد نجم.

وكان مقررا أن تنطلق فعاليات ختام اليوم في الثامنة مساء إلا أن معظم الحضور لم يلتزم الموعد المتفق عليه فبدأت فعاليات الندوة في التاسعة والربع مساء وكان حضورها قليلا مقارنة بفجيعة الأمة وحجم مصابها.

وقد بدا الحضور ممثلا لتيارات سياسية مختلفة كان معظمها لحركة «أدباء وفنانين من اجل التغيير» حيث شارك الشاعر أحمد فؤاد نجم والفنان خالد الصاوي والشاعر إبراهيم داوود، ونجاة علي والناشر محمد هاشم والدكتور أحمد الخميسي.

كما حضر من الفنانين فردوس عبدالحميد، وفنان الكاريكاتير مصطفى حسين الذي جاء مصحوبا بعدد غفير من اعضاء مجلس نقابة الفنانين التشكيليين التي يترأس مجلس ادارتها إلا أن حضوره لم يطل وانصرف مع صحبه سريعا، وقد أدارت وقائع الندوة المذيعة بثينة كامل، وقامت المخرجة لبنانية الأصل «عرب لطفي» بتنظيم الجانب الأكبر من الندوة، كذلك حضر السياسي كمال خليل عن تيار الاشتراكيين الثوريين.

وقد وضح منذ الوهلة الأولى أن ثمة تناغما مفقودا بين المتحاورين، ربما فرضته قسوة اللحظة وتخبط الآراء حولها، مما كان يشي بحالة من العجز المضافة والمعطوفة على عجز الأنظمة.

حاولت بثينة كامل ـ برقتها المعهودة ـ ان تتجاوز دورها كمديرة للندوة، لكنها لاقت قمعا واسعا من القاعة، لا سيما عندما طرحت أفكارا حول الشعار الذي يمكن الالتفاف حوله في هذه الظروف وألقت مثالا بشعارات محايدة – أوروبية على الأغلب – مثل شعار «أنقذوا لبنان» فضجت القاعة بالاعتراضات بدعوى أن الشعار يبدو محايدا بأكثر مما ينبغي، وعلق محمد هاشم بأن الشعار يمكن تطويره الى «انقذوا لبنان بالمقاومة»، وبعد جدل خارق سياق الحديث تدخلت الفنانة فردوس عبد الحميد، وقالت: اننا سنعتبر هذا الحضور هو اللجنة المكلفة بتقديم الاقتراحات واشارت الى ان سرعة الانجاز وكثافته هما فقط اللذان يمكنهما دعم الصمود اللبناني، واضافت انه إذا كان ثمة تراجع فيما يتعلق بأعداد المتظاهرين ضد الحرب الشاملة على لبنان وفلسطين فان واجبنا الأساسي ينصب على ضرورة خلق جبهات دفاع متصلة ومتواصلة، وأردفت فردوس عبد الحميد قائلة:

ان ما يحدث من هدم للبنان هو إرهاب منظم ولابد أن نكون في حجم المسؤولية، وأقل ما يمكن أن نفعله الآن هو الاجماع على حتمية اغلاق السفارة الاسرائيلية في مصر.

أما الفنان خالد الصاوي، الذي بدا أكثر حضورا بعد نجاحه في الدور المتميز الذي قدمه في فيلم «عمارة يعقوبيان» فقد اكد على مقولة الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى بموت عملية السلام، وتحولها الى استسلام كامل، وقال: ان ما يحدث الآن يتلخص في قيام الأنظمة العربية بتهيئتنا كشعوب للمذبح الصهيوني سواء كان ذلك معنويا بمحو فكرة المقاومة، أو ماديا بالقتل العلني على مرأى ومسمع من العالم.

وأضاف الصاوي متساءلا: إذا كان المطلب العالمي الآن يتحصل في حتمية تدمير المشاريع السياسية والاجتماعية العربية فما فائدة هذه الجيوش التي أنفقت عليها حكوماتها مليارات الدولارات؟!، واقترح خالد الصاوي على الحضور، طرح العديد من القنوات التي تصب في مصلحة دعم المقاومة مثل الدعوة الى مؤتمر عام للنقابات المهنية، ثم الدعوة لمؤتمر مثيل للنقابات العمالية.

ثم تحدث أحد الحضور من التونسيين، ولم يفصح عن اسمه، لكنه بدا متألما لتراجع الدور المصري كدور رائد وألقى بمسؤولية ما يحدث على عاتق هذا الدور المتراجع، في الوقت نفسه انتقد مثل هذه الاجتماعات التي تنعقد في الصالونات المكيفة وطلب الى الحضور التواجد في الشارع بين جموع الشعب وفي الأحياء الشعبية، وفي هذه الأثناء صعد صوت غاضب لسيدة لبنانية وسط القاعة، حيث طالبت المتحدثين بالكف عن إلقاء الخطب والمقالات وقالت ان جميع الحضور يدركون جيدا مواقفهم ومواطئ أقدامهم، نحن نحتاج الى اقتراحات عملية لدعم المقاومة.

بعدها تحدث السياسي «كمال خليل» مشيرا الى ان مهمتنا ليست تذكية الاحباط لدى الحضور ولدى الشارع وعلل ندرة الحضور، لا سيما في التظاهرات، بسبب الممارسات العنيفة وغير الانسانية لأجهزة الأمن في التظاهرات الأخيرة لا سيما في أزمة نادي القضاة، ويذكر أن كمال خليل كان أحد المقبوض عليهم في تلك الأزمة وقد استمر حبسه لمدة تجاوزت الثلاثة أشهر ولم يفرج عنه سوى قبل أسبوعين تقريبا، وأشار خليل ان التجمع الوطني لا يمثل الشعب المصري كله لكنه واحد من روافده واستعرض ما تم عمله بالفعل واشار الى ان الأيام القادمة ستشهد تحركا في عدد من المناطق في مصر مثل الفيوم والدقهلية والقليوبية ودمياط وكفر الشيخ بهدف عقد عدة مؤتمرات شعبية لتنتهي عدة تظاهرات كبرى تجوب ميادين القاهرة الكبرى والمحافظات، والأحياء الشعبية، كما اعلن كمال خليل عن اتفاق التجمع الوطني على تسيير قافلة الى رفع تحمل مساعدات طبية وانسانية وعقد مؤتمر موسع هناك وذلك في الثامن من ايلول (سبتمبر) القادم، وهو الاقتراح الذي لاقى قبولا واسعا من كافة التيارات، في الوقت نفسه دعت اللجنة الشعبية لدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني كل الأحزاب والقوى السياسية والنقابات المهنية والعمالية ومنظمات المجتمع المدني، والمواطنين الى المشاركة في الاجتماع الموسع الذي سينعقد في السابعة من مساء السبت 2006/7/29 في مقر اللجنة المؤقت بمركز هشام مبارك للقانون وذلك لمناقشة الترتيبات العملية الكفيلة بإرسال قافلة دعم سياسي وإغاثي لدعم صمود ومقاومة الشعب اللبناني في مواجهة العدوان الإسرائيلي والأمريكي على لبنان كما دعت اللجنة الى البدء في جمع تبرعات من خلال شيكات مقبولة الدفع باسم الشركة المصرية لتجارة الأدوية دعما لانتفاضة الشعب الفلسطيني.

تداعيات

بين المواجهة والخنوع

علي كنعان *

■ يقول إرنست هيمنغواي في (الشيخ والبحر): «لم يخلق الإنسان ليُهزَم... من الممكن أن تدمِّر إنسانا لكنه لا يُهزَم». هذا يعني أن الجسم قابل ببساطة للفتك والتهشيم، لكن إرادة الإنسان، وعزيمته المكنونة في نسيج الروح، من المستحيل أن تستسلم أو تنهزم. ولعل هذه الروح هي التي نراها في غزة، في الضفة الغربية، في بعض مدن العراق، وفي الجنوب اللبناني المقاوم.

وفي متابعة ما يجري وتأمل وقائعه، لا أرى ضرورة للانزلاق المتهافت إلى مواقع الأعداء والتشكيك في صدق نوايا المقاومة وسلامة التوقيت. وأرجو من المثقفين الذين يكتبون في الشأن العام ألاَّ يستعجلوا في تشكيل الآراء الجائرة وإطلاق الأحكام السلبية الجارحة، فالمعارك ما زالت في بداياتها. ولا بأس أن نتذكر أن جيوشا جرارة لم تصمد أمام هذا العدو إلا أياما معدودات. ومن حقنا أن نشير إلى الفارق الهائل في تسليح العدو وتطوير آلته الحربية الجهنمية بين اليوم وذلك العام البغيض.

لا أبالي أن يتهمني المتشائمون بما يحلو لهم، إذا قلت إن الأمل في ما تفعله المقاومة اللبنانية واعد وجدير بالتأمل والمساندة والاستفادة، في حين نرى قطعانا من كبار «القوى المعلوفة»، في كل بلد عربي خارج لبنان، لا يحركون ساكنا لمواجهة العدو ولا يفعلون شيئا يستحق الانتباه إلا أنهم يدفعوننا أن نكون في حذر منهم ومما يفعلون في الظلام.

سياسة الأرض المحروقة رأيناها في الشهور الأخيرة من الثورة الجزائرية المظفرة، وعمليات الفداء الفلسطينية التي انطلقت بعد «النكسة» الحزيرانية وهي التي فتحت أبصار العالم واهتماماته على واقع القضية المحورية، وهي التي أرغمت العدو على الاعتراف القسري بشعب فلسطين وحقه ولو بجزء من أرضه وإقامة سلطته الوطنية على تلك الأرض.

المغيظ في معظم الحوارات الفضائية والكتابات الصحافية أن العلة الأساسية، وهي الاحتلال، تغيب عن البال ويجري التركيز على مسائل أخرى كالتوقيت والمغامرة والانفراد والتوريط والأسيرين وما شابه. وكبار قادة الوحدة الأوروبية وأقطاب الأمم المتحدة ذاتها نسوا أو تناسوا أن الاحتلال الصهيوني هو أساس المصيبة وهو طاعون المشرق العربي.

لكن الموقف المحير الذي لا أستطيع فهمه ولا أجد له تفسيرا هو موقف نظامنا العتيد في سورية... وإلى متى يستطيع الاستمرار في نهجه المعهود، وكأنه خارج المنطقة وخارج العصر. كثيرون منا مستعدون لمراجعة مواقفهم وأفكارهم، لو أن هذا النظام وجه طلقة واحدة ضد الطائرات المعادية التي تخرق الأجواء السورية أو تقترب منها، وهي تنسف الجسور الواصلة بين سورية ولبنان وتدمر الطرق الدولية... وحتى سيارات الإسعاف القادمة إلى لبنان لم تسلم.

ألا يعني هذا أن العدو الصهيوني بدأ يفرض طوق الحصار على سورية في الوقت ذاته الذي أشرف فيه على الانتهاء من حصار لبنان؟ ماذا فعلنا؟.. وماذا في ميسورنا أن نفعل لفك هذا الطوق؟ أين لافتة «وحدة المسارين» وما شابه من لافتات فاقعة الألوان؟! وأين «سوا ربينا؟!» السؤال مثقل بالذل والانكسار. لكن يأسا شاملا من الأنظمة السادرة، يدفعني أن أتوجه إلى الناس العاديين في القرى والمزارع المجاورة... أليس في مقدورهم أن يتفوقوا على طيران العدو ويكونوا أكبر من آلة القصف والدمار باجتراح معجزات تؤدي إلى شق دروب وشعاب تجعل العدو عاجزا عن نسفها وإغلاقها لكي يستمر التواصل والمساندة والإسعاف؟

لا أدري إن كنت بحاجة إلى التأكيد أني لست من هواة الحروب ولا من عشاق مشاهد الأشلاء والحرائق وأنقاض المرافق والبيوت، ولكن السادات ذاته ـ لمن يتذكر ـ لم يتردد في خوض حرب (التحريك)، فهل يتذكر العالم أرضنا المحتلة دون تحريك عسكري عنيف وموجع؟ فلماذا لم نغتنم هذه الفرصة المواتية، وهي فرصة تاريخية نادرة لن تتكرر قبل سنوات.. وسنوات؟ لماذا لا ندافع عن الحد الأدنى من بقايا الكرامة المهدورة؟ وهل نسينا تلك الأرض المحتلة في مرتفعات الجولان؟ أم أننا سوف نحررها باستجداء (الأجاويد) والخنوع أمام عتبات الأمم المتحدة وتقبيل أيدي عصابة جورج بوش؟!

أعرف أن التذكير بالجولان جارح لكل سوري له موقع ما في السلطة المهيمنة، ولعل هذا التذكير لدى كثير من كبار المسؤولين يعد جريمة لا تغتفر.. لأنه يخفي نزعة مشبوهة ترمي إلى توريط النظام المترف في مغامرة مجهولة العواقب، وهم لا يريدون تلك الورطة الخطرة قبل نضج الظروف المناسبة لتحديد مكان المعركة وزمانها.. إلخ. لكن متى، يا سادة؟ أفي الآخرة؟!

من المؤكد أن (جريمة) ميشيل كيلو ورفاقه الأحرار من لجان إحياء المجتمع المدني تندرج أساسا تحت هذا البند الخفي، أعني ذكر الجولان في أكثر من مقالة وحديث، وإن أنكر السادة المسؤولون ذلك وأزالوه من معجم التداول الرسمي، مثلما حرَّموا أي إشارة إليه حتى في أحاديثهم الشخصية.

هذه مجرد إشارة عابرة لا ترقى إلى مستوى التذكير، إنما اقتضى طرحها سياق الأحداث الملتهبة. ولكن، هل يحق لنا أن نذكِّر بالصواريخ التي وجهها صدام حسين إلى فلسطين المحتلة، والتي جعلها بعضهم نكتة سمجة في مجالس الأنس والشراب؟ وهنا أبادر إلى الاعتذار عن هذا الشطط الأرعن، فقد نسيت أن الرجل دفع بنيان دولته ومصير بلاده ثمنا لتلك المغامرة، غير المحسوبة جيدا. وأكثر من ذلك، علينا أن نتذكر عشرات الشهداء من علماء العراق وأساتذة الجامعات فيه، لندرك مدى الحقد الدموي الذي تمارسه الدولة الصهيونية وحاضنتها المتوحشة من مجرمي الحروب بإدارة جورج بوش، بينما تقدم الأنظمة العربية ما تيسر لها من تسهيلات وخدمات.

لا أريد أن ألامس المحرمات أكثر من ذلك، لكن أملي ما زال كبيرا وراسخا أن ما تفعله المقاومة اللبنانية الباسلة سيفتح طريق التحرير واسعا خلال السنوات المعدودة القادمة، فالأمة لا يمكن أن تموت... والأجيال الواعية المخلصة سوف تقتدي بهذا المثل العظيم، ولا بأس أن يكون «الجنون والمغامرة» منصة الانطلاق.

ها هو تشي غيفارا يعود إلى بلدان أميركا اللاتينية ليقود معارك التحرر الوطني. وأحرار الأمة من رجال المقاومة وشبابها في فلسطين والعراق وجنوب لبنان يفتحون جبهة موازية في قلاع الإمبراطورية الأميركية التي تشرف على دكاكينها في بلادنا العربية وتديرها وتنتفع بها وكالات ليس فيها من العروبة إلا اللافتات والأسماء وحروف الجر، وقصص شتى من مخازي التبعية والخنوع.

* كاتب من سورية